مقـــدمة

لا شك أن الكثير منا، نحن العرب، فى الزمن الحالى يحسون بالإحباط ويشعرون أنهم يعيشون فى أزمة على مستوى الفرد ودوره فى المجتمع، وخاصة المشتغل بالعلم المهتم بقيمة مجتمعه، وهى أزمة على مستوى الدولة و الإقليم والوطن وهوانه على الآخرين، وأيضًا أزمة على مستوى العالم الذى نعيشه مع بدايات القرن الحادى والعشرين، حيث لايسمع الإنسان صوتًا أعلى من صوت القوة، ويسمع الشىء وعكسه من نفس المصدر ويهتز فى أعماقنا الكثير من القيم الإنسانية الرفيعة التى بناها البشر على مر العصور، ونتساءل: لماذا هذا ؟ لماذا نحن ننتمى لدول يصفونها تأدبًا بأنها نامية، وتعيش تحت سيطرة آخرين فى جوانب متعددة، ولا نستطيع حماية دمائنا وأموالنا. . !؟ ولماذا هم دول يصفونها بالمتقدمة أصحاب سيادة وهيمنة يفكرون ويتحركون ويبدعون فى شتى مناحى الحياة!؟ وما حقيقة التفسيرات التى يعرضونها هنا وهناك ؟ وما علاقة ذلك بالثقافة والعلم والعرق ؟ولماذا يوجد بشر أقوياء أغنياء وآخرون ضعفاء فقراء ؛ على الأقل من الناحية المادية؟!.

تكررت فى العقود الأخيرة بين الناس مفردات ومصطلحات وتعبيرات محددة مثل«العرق والأعراق»، «والتميز العرقى»، «والإبادة العرقية» وكذلك «الثقافة»، «تنوع الثقافات»، «حوار الثقافات»، «صراع الثقافات» «تصادم الثقافات»، «تكامل الثقافات».

كما أن هدف المشغولين بأوطانهم ليل نهارهو موضوع التقدم والتطور والتنمية والتطوير، إن تداخل هذه المفردات مع بعضها البعض فى أحاديث الناس، بل وفى اجتهادات النخبة من مقالات وحوارات تزيد من غموض الوعى بمحتواها وعلاقاتها مما يصعب الإدراك السليم والفهم الواضح لأبعادها الأكاديمية لغويًا ومنطقيًا، وكذلك فى أبعادها التاريخية فى أرجاء المعمورة وانعكاسات كل ذلك على حياة الناس اليومية.

إن مفهوم العرق والثقافة والتقدم هو موضوعنا الذى سنجتهد فى إلقاء الضوء على جوانبه المختلفة فى هذا الكتاب.

إن الموضوعات التى سأتناولها صعبة ومعقدة وتحتاج إلى جهد كبير فى البحث والتحليل والاستقراء لمعارف متنوعة فى تخصصات عديدة، لكن ما أقدمه فى هذه الصفحات ليس عملاً أكاديميًا صارمًا مثقلاً بالوثائق والمراجع، وإنما فى الأغلب هو تأمل وتصور فكرى مبنى على ما ترسب فى العقل من دراسات وقراءات مستفيضة فى تخصصات علمية عديدة، وبأكثر من لغة، أردت جمعها ملخصة فى عمل واحد، وأن أرافق القارئ فى التجول بين مختلف الرؤى، وفى جوانب كثيرة من البيولوچيا والثقافة لتساعدنا فى التعرف على مساحات شاسعة من المعارف يصعب الاطلاع عليها والإلمام بها فى صفحات قليلة وزمن محدود، وأتصور أن القارئ لابد أن يكون ملمًا ببعض المعارف الأولية وليس بالضرورة أن يكون متخصصًا فى أحد هذه الفروع، فهدفى هو المثقف العام فى العالم العربى الذى يسعى إلى ربط معارفه وإلقاء مزيد من الضوء عليها. لعل ذلك يساعد فى إطفاء الظمأ لفهم ما يجرى حولنا، ويفتح الطريق للتنمية المتوازنة لمجتمعنا.

وهنا يقابلنا جهد آخر وهو ضرورة عرض المحتوى المعرفى لما نريد عرضه بلغة عربية سليمة وأسلوب سهل واضح.

وبالرغم من صغر حجم هذا الكتاب، إلا أنه يتعرض لقضايا كبيرة، ويثير العديد من الأسئلة الملحة على ساحتنا المعرفية...

ما هى أسباب تقدم بعض الأمم وتأخر بعضها الآخر؟

إن هذا الكتاب مجموعة معارف ملخصة فى صفحات قليلة، ترتكز على دراسات أكاديمية، ويعرض بأسلوب عربى سهل معلومات عن تخصصات علمية عديدة وضرورية لبناء العقول، نحن فى أشد الحاجة إليها دون إغفال لجذورها العربية. يفتح محتوى هذا الكتاب للقارئ العربى آفاقًا رحبة من المعارف، تزيده إحساسًا بقيمته وتعمق فهمه للإنسان وطبيعته وثقافته أينما وجد على هذا الكوكب، يبين للقارئ تنوع البشر فى الشكل والحجم واللون إلى شعوب وقبائل، وينير له الطريق لفهم اختلافهم

فى الثقافة وعناصرها العديدة من دين إلى لغة، ومن عادات وتقاليد إلى فنون وعلوم، ومن أفكار ومعارف وأفئدة إلى مشاعر وأحاسيس ووجدان.

يفتح لنا هذا المدخل الفريد ـ لربط العلوم البيولوجية بالعلوم الإنسانية، والثقافة والبحث عن العلاقات بين الأفكار والسلوك ـ بابًا لنطل منه على العلاقات بين البشر بمنظور بانورامى جديد، يؤكد حقيقة الأصل الواحد لجميع البشر، ويتيح المجال لعمق التسامح عند الاختلاف، بل ويدفع إلى التكامل بين المجموعات والثقافات لزيادة إنسانية الإنسان.

إن ظمأ العديد من المثقفين العرب للإجابة الشافية المقنعة عن السؤال المعذب الأليم ـ لماذا نحن هكذا اليوم؟ لماذا أرضنا مستباحة ودماؤنا نازفة وثرواتنا منهوبة؟ لماذا انتشار الأمية وعدم الميل إلى المعرفة؟ وانتشار الفقر المعنوى وإن توافر بعض المال مؤخرًا؟

وقد عرض هذا الكتاب مفهوم التقدم بشىء من التفصيل، وسلط الضوء على الإنسان كفرد من الناحية البيولوجية والصحية ومن الناحية المعنوية والثقافية، كما أشار إلى الإنسان كوحدة بناء مجتمع، وكيف يمكن الحكم على هذا المجتمع بالتقدم أو التأخر؟ وما هى المحددات التى يبنى عليها ذلك الحكم؟ لقد تم ذكر مختلف الجوانب والمحددات من صحية واقتصادية وثقافية كمدخل للقارىء المهتم؛ لكى يسعى ويبحث ويقرأ بتوسع أكثر.

* * *

أتقدم بالشكر لكل من عاون وشجع على إتمام ونشر هذا العمل وظهوره للنور.

أهدى هذا الكتاب إلى روح زوجتى الراحلة أليسا، والتى لولاها ما كانت مظاهر وأسباب تنوع البشر واختلاف الثقافات هى موضوعات حديثنا اليومى، ودافعًا لمزيد من الدراسة والبحث.

ونرجو من الله التوفيق.

على النفيلى

elnofely@hotmail.com